لوحة الغلاف الفنان نبيل بربر

أضأتُ قيصرَ مرتين

فرحان ريدان

لم أكُن قُدَّامَ آدم يومَها
كنتُ أنامُ في حجَري
أراه ولا يراني
واذ وزَّعَ الأسماءَ للدنيا دعاني : خنجراً
هو مارآني وهو أسماني قال : خنجر .

مرحباً يا قتيلُ
يا أولَ القتلى
مرحباً يا شقائقَ ورد المزار
يا الراجف على الخنجر
يا النفس في نبيذ الفجر
يا زينةَ المحضر
مرحباً
قلنا مرحباً فلمَ التردُدُ مثل دوري ؟
فيمَ التوجسُ كالغزالة في المساء ؟ إلى أين تنظر ؟
أنا هنا ، في الحصى بين أظلاف الغنم
وإن شئت... فأنا هناك :
في اندفاع الارض ، في توهجها حين تلفظ جوفها كأنما سالتْ جهَّنمُ
وصخرةُ الطَّود الأصم ، حيث تدلّي الآنَ ساقيك ، أنا من يلصِّفها
لا تجفل ؛ أنا الخنجرُ ، لستُ جنياً ، ولا ذئباً تربَّص بالقطيع ، ولا أخاك :
أخاك الذي سوَّر الأرض ، وادَّعاها لنفسه والذي على مرأى من الله ، يمزقها .. ويرشق وجهها بالقمح .. من يحبسُ الحنطة في قبضته ، من يلمُّ الطير حين يفرد كفه ، الذي يمشي ويتبعه الحمام فيستدير : فرَّ يا حَمام وطير! .

ظِلٌ حَبة القمح .. ماذا يقول حين تدهَمُهُ الحمامةّ ؟
لا تُجب ، أولى به أي يجيب ، بالذي يمشي ويتبعُه الحمامُ ..والذي تمشي إليه هواجسك !
هُشَّ على الغنم ، هش على الغنم تعرفِ الشاةُ عرقوبَها

أضأت قيصر مرتين

...وترتعشُ التَّراكي على نَحرِ الجَدِي
تترُكُ المريَاعُ دُردَاراً يُضِيءُ
تَخطِفُ رأسَها في الأرض ، ويَنُوسُ الجَرَس
فَتمشي إليكَ الدُّروبُ ، وكُرَاثُها ، وشِيحُ المسِيلِ، وكَفُّ العروسِ ، وإبرَتُك ، وأثلامُ الذي ولدَتهُ أُمُّكَ
كُلٌ ثَلم حَد : تَحلمُ بالجنوب فَيهتِفُ : حاذِر ! الجنوبُ حِنطَتي
تقودُ القطيعَ شمالَ شَرق فيَصرخُ : وَيحَكَ ! تمشي الى حَيثُ الشَّعير ؟
كُلٌ ثَلم حَد ، مَرَسٌ يُكَرِبسُ أطرافَ المواشي ، ويَصُد خَطوَكَ للتخوم
في لُهاثِ الثَّور توقٌ الى نَفَلِ الجنوب
المعزُ يربِضُ في الظلال ، كُلٌ أنثى مُتئِمٌ ..ليسَ في المعزِ حَائِل ، والمراعي تُنائي
كلما شَقَّ وَجهَ الأرضِ ثَلمٌ شَقَّ الهواءَ ثُغاءٌ يائسٌ ... أَنتَ مَدفُوعٌ الى حَافَّةِ الدنيا
فقُلتَ :
يا فِرَّ يا حمام و طير ...يا أخي ! هذا حِصَارٌ مِش أُخُوَّة !
فقالَ : شووووو؟ وَشَدَّكَ من يَدِك ، جَرَّكَ خَلفَهُ حيثُ الحقول :
أراكَ ، هو أراكَ ،كيفَ المعزُ ، مَعزُكَ ، خَرَّبَ حَرثَهُ ! فَلم تُنكِر ، (كيفَ تُنكر وأنتَ وَلي !)
ثُمَّ قادَكَ من يدِك ... مَدَّ اصبَعَهُ من فوق بَيدَر :
عَربْ لي ، الآن ، بَعرَ التُّيوسَ من العَدَس !
فأُسقِطَ في فمِك ، لم تجد ما تقولُ ، هَجَستَ :
أَهو القَدَر أَنطَقَهُ وأخرسَني ؟
هُنا ، في هذه اللحظة ، هَجَستَ بي أوَّلَ مَرَّة : أنا الخنجر
أنتَ لم تجد ما تقولُ فهجستَ بي :

أنا الخنجرُ
أنا انبجاسُ الهواجسِ
جئتُكَ فِكرةً عجراءَ كالكمأة
تُقَوضُ ماتوطَّدَ في القِفار
ويَمُورُ في زَخَمِ اندفاعَتِها التَّوَترُ ، والتَّوقُ الظَّما الى زُحَلَ الخفيف

أضأت قيصر مرتين

فتبّاً لشَرقِ رائِحَةِ الشَّعير
وَتَباً لِدَمِ العُروقِ ، وما أضيَعَه حين يَصيرُ ماءْ

فرَدتَ كَفَّيكَ حَولَ فَمِك : فِر يا حمام وطيييييير ! يا أخي ي ي يي!
رَدَّت جِبَالُ الشَّرقَ : فِرررررررر!
شَدَدتَ الصَّدى من أُذنِهِ وشَمَمتَهُ : ليس فيهِ حمام !
عادَ الصدى وما عاد الحمامُ معَ الصدى ، كُلٌّ الصَّدى ، مِلؤهُ : فرررر
فما الذي امتَصَّ الحمامَ من العبَارةِ والنداءِ ؟
هو التَّداعي ، وما التداعي ؟ أن ترى في النوم شعْر الصدر : صدر أخيك
وترى الأعشاب مقلوبة ، وسكة المحراث تخزق وجه الأرض
تطفنُ ، يجول في نفسكَ هاجسٌ :
لماذا لا أشقُّ ، أنا الخنجرُ ، خنجرك ، صدرَ أخيك وأقلبُ عشبَهُ
تهبُّ مذعوراً ، تديرُ ظهركَ للمغارة ، وتبحث عن أخيك

هُشَّ على الغَنَم ، هش على الغنم تعرفِ الشَّاةُ عُرقُوبَهَا
وانتبه للنهر :
فهو المرايا تسيلُ
اندلاقُ نفسك فضةً
وهو انفلاتُ هواجسك
يباعدُ ضفَّتيه بها ليسقطَ قطنُ الغيوم به وتراكَ السماء
فللمياه هواجسٌ ، والحفيفُ السَّحابُ هذي الهواجسُ إذ تَشِف
وحينَ تبكي السماءُ لا تبكي من هواجسها : تبكي من هواجسنا فوقَ المياه

انتبذ ، إذن ، غيمَ الغدير ، إجلسْ على عُشب النَّدى واهدأ
صَفر قليلاً للحصان كي يبوسَ الماءَ أكثرَ ، كي ترى ملامحَ وجهكَ مَرَّتين ، كي تُجعدَهُ الدوائرْ :

أضأت قيصر مرتين

رغيفا تارةً ،وتارةً قمراً على موجتين
صفر قليلاً للحصان
كي يمدَّ ذراعَهُ فوقَ السماء
كي يفتقَ الماء وترتعشَا معاً
انتبه !
الأنبياءُ لا يَغرقون ؟!
يا ابنَ آدمَ : النَّهرُ ليسَ محايداً
أنظُرْ أمامكَ ، في المياه ، لا تَخَف ! انَّهُ : فِرَّ يا حمام و طِير
لا تخَف من يديهِ ، فهوَ أعزَلُ
الذي بينَ كَفَّيهِ مُجرَّدُ سنبلة ، ولسوفَ يفركُ قمحَها ويَسِفهُ
ولسوفَ يتلو صلاتَهُ : إذا قمحي تماوجَ رِيحُهُ .. ائتمرَ النَّباتُ جميعُه
أنا قمحتي ، وقمحتي سَيدي :
قمحتي سِتٌ القموح
قمحتي لا لن تروح
قمحتي كَفٌ طحين
وطحيني برغيف
ورغيفي بِ : جَدْي !

فقُلتَ : تُصَلي ؟ أَم تُقَايِضُ يا أخي ؟
وَمَن ذا تُقايضُ ؟ ففي جهات المدى ليسَ إلانا
فقالَ : هِه !
بَلَعتَ ريقَكَ صامتاً وابتعدَ
رأيتَ كيفَ يسحبُ ظِلَّهُ فوقَ المياه كأنما يُسدِلُ فوقَ عينيكَ سحابة

أنا الخنجرُ سمعتُ بَلعاتِ ريقِكَ
سمعتُ صمتَكَ
أنتَ لم تَجِد ما تقولُ فانبَثَقتُ أنا لُغَة ! .

أضأت قيصر مرتين

أنا الخِنجَرُ

أنا لغة

فَ فِيمَ تُنكِرُنِي ؟ وَعَلامَ تنكرني ؟ وَإلامَ تنكرني ؟ أنا ابنُكَ !

أنا انبجاسُ الهواجِسِ : هاجِسِك

فَ : نَزوُ تُيُوسِكَ لغة

ساقيةُ المرايا إذ تُسَرِحُ سَروَةً لغة

فرَسٌ تنَظفُ بِنتَها بِلسانها لغة

نظرَةُ البازي إلى عُش القطا لغة

بَلعَاتُ رِيقَكَ لغة

صَمتُك لغة

هِه : لغة

وأنا سِيدُ اللغات

أنا الخنجرُ أنا سِيدُ اللُغات

آنَ أَنطِقُ تَمَّحي كُلٌ اللغات

أنا الخنجر

ظِلٌ نَصلي خَطُ حَبَّةِ القمح

وحَبَّةُ القمح مفتاحُ الحروب

وحبَّةُ القمح مُفتَرَقُ اللُغات

وأنا رَكَزتُ بيارقي في المفتَرَق

آنَ أنطِقُ تَمَّحي كل اللغات

ظلٌ نَصلي خَط حبة القمح :

على خط حبة القمح مشى ابراهيمُ من كَمأ العراقِ الى أريحا ، أنا رأيت ركضه الراعش شرق أريحا

وعلى خط حبة القمح أضَأتُ الخَضر ، أنا الخنجر ، أنا أضأتُ الخضر ، قلتُ :

أنا الخنجر ، فقالَ : إحم ..إيح..احم

لم يكن يعرفُ أني لغة ، وقال الخضر :

أنا الجلَّنارُ ، غَضبةُ النَّفسِ من ثوَرانِها

تَوَقدي أحمقٌ كأعوادِ قِرفة

أنا تَواثُبُ لَوعَة ،رِئَةٌ تخَيلُ لُهاثَها ، رُمَّانتي اقتَرَبَت من المعنى فتَوهَّجتْ

وقال الخضر :

ما راعَني السَّيفُ ، راعني الليلُ ليلَ مالَت أريحا لَهُم

وَحدَها الشَّجَرة فتَحت جِذعَها واحتضَنتني

أنا رأيت ، قُدَّامي نَشَروا عِظامي

وقال الخضر :

ياآخِذَ النَّواصي ! بدأتَ فتَمم ، خَلقتَ فاهدِ ، قضَيتَ فاعفُ

وقال الخضر :

يا ربي !

هُمْ بشر

وأنا نبي

هم يذبحوني

فلا تسمحْ لي السماءُ بأن أقولَ آااخ

قلتُ ، أنا الخنجر ، قلتُ : ولاااا ! تَشك ؟

فقالَ: ولَكْ أنا الخضر

فقلتُ : هِه !

قال : أنا هه

أجَبتُهُ : لكان أنا إييح ؟ وأضأتُهُ

على خط حبة القمح سالتْ دماءُ الخضر ، لَسَّتهُ الخنافِسُ

.. توهَّجتُ في دمه ، توهجت رمانةً

واندَحتُ طَلَّاً ، وانحسَرتُ زَبدْ ، وإن قلتُ أريحا فكُرمى أريحا أقولُ حَلَب :

- بلَغَني أنَّكَ تذهبُ الى باب الفَرج ؟

- .....

- كَم جامِعٌ في حلب ؟

- .....

- ولماذا تذهب الى باب الفرج ؟

- .....

أضأت قيصر مرتين

– ماذا قلتَ في المصَلين ؟

– .....

– لا أسألُ عن هذا

–.....

– ولا هذا !

.....

– تَعرِفُ جَيداً عَمَّا أسألُ يا سُهرَوردي !

– .....

– ليسَ حكيماً ماذا ؟

.....

– ليس حكيماً من لا يخلع ويلبَس ؟

يخلع ؟ أنتَ الإمام ، الحكيم ، الفيلسوف ، الشاعر ، لم تجد سوى يخلع ؟

ضاقت بكَ اللغة يا سهروردي ، كلما سمعتُكَ امتدَّتْ يدي الى خنجري !

امسحوا دوائرَ الدَّم !

غسِّلوني .. غسلوني

أرى قدمي أراقَ دمى وهانَ دمي وها نَدمي

كفى يا علقمي ! مللتُ لغوكَ ، لا يا شيخ محي الدين

بُحَّ صوتي وأنا أستَحِثكُم ولكنكم ... لا تتدخلْ يا شيخ محي الدين

البوارجُ المحايدة تقصِفُ الرضَّعَ جنوبَ البصرة ..ولا شيخ محي الدين !

امسحوا دوائرَ الدَّم !

غسِّلوني .. غسلوني

لقد صار قلبي قابلاً كُلَّ صورة .. أيَّ صورة

– وماذا تقولُ في الشَّمس ؟

– حجَر أحمر سَاخَن !

– والإله أبولو ماذا نقولُ لهُ ؟ خَلَص ...هَجرَكَ الأثينيون ..؟ ألفُ دراخما يا أناغثاغوراس

– حجَر أحمر ساخن

– ألفٌ وخمسمائة دراخما !

– حجر أحمر ساخن

– ثلاثةُ آلاف دراخما

– حجر أحمر ساخن

– خمسةُ آلاف دراخما

– حجر أحمر ساخن

– خمسة آلاف دراخما والمرأةُ التي تعشَقُ .. الشَّاعرة سافو !

– حسش أخمن ..آ آحح...حجر أحمر ساخن !

– لا تخفْ يا أناغثاغوراس ! كنتُ أمزحُ . لم تقلْ لي : ما رأيك بهذا الخنجر ؟

معك حق يا غوراس ! يجب أن تراه أولاً : ها هو !

يا آلهة الأوليمب ! لقد نسيتُ تصور يا أناغثاغوراس أنا حاكم أثينا ومع ذلك أنسى

فأنا لا أستطيع أن أنتضي خنجري دون أن أطعنَ به

امسحوا دوائرَ الدَّم !

غسِّلوني .. غسلوني

أنا الخنجر

كنتُ أنامُ في حجَري

لم أكن أعرفُ أن حقدَ البشر يظلُّ مستيقظاً

حتى أيقظتني أيادي البشر

ففي كل أرض وفي كل فجر ستنفجرُ الحكايةُ ذاتُها

وأكون للدنيا : لغة

وفي مطلع كل فجر ، وفي كل أرضٍ

أميْلُ على الجائعِ : انتمِ لي أكنْ نصيركَ في الوجودْ

فينتمي للملك .
أنا بريء من بكاء الثكالى
أنا الخنجر كنت أنام في حجري
أعيدوني إلى حجري
أنا بريء
أعيدوني إلى حجري
كي أنام وأستريح

كنتُ ركزتُ بيارقي في المفترق آنَ أنطق تمحي كل اللغات
واليوم أكسر بيرقي
وأحرق رايتي . إني أفرُّ من البشر
أفر من خُيَلائهم . أفر من أحقادهم . أفر من الجحود ..

أنا الخنجر
هجَسْتُ أني قنطرةْ
وأن بي حجرا يقول :
كتبتُ تاريخ الحروفِ بلا يدين
وأنا أصدِّقُ هاجسي
مِنْ هنا سيمرُّ قيصر
وأنا أضأتُ قيصرَ مرتين .

أضأت قيصر مرتين